نص المحاضرة* التي ألقاها رولون بارت بإيطاليا، والتي أعيد كتابتها في جريدة "Le Monde" الصادرة بتاريخ 07 جوان 1974

ترجمة: عزيز نعمان
بجامعة - تيزي وزو-

منذ بضعة أيام جاءت إحدى الطالبات لزيارتي فطلبت مني تحضير شهادة الدكتوراه –درجة ثالثة– في موضوع كانت قد اقترحته عليّ بشكل ساخرٍ إلى حد ما ولكنه لا يخلو البتة من طيبة. يتعلق الأمر بالموضوع الآتي: نقد إيديولوجي للسيميولوجيا.

يبدو لي أن ما يتوفر في هذا "المشهد" القصير من عناصر كفيل لإعطاء لمحة قصيرة عن السيميولوجيا وعن تاريخها الحديث:

- نجد أولا المحاكمة الإيديولوجية، أو بالأحرى السياسية، التي غالبا ما تتعرض لها السيميولوجيا، والتي يندد بكونها علما محافظا، أو على أقل تقدير علما غير مكترث بالالتزام الإيديولوجي: أولم تتهم البنيوية، كما اتهمت الرواية الجديدة منذ مدة، هنا بإيطاليا، إذا لم تخنّي ذاكرتي، بكونها علما متواطئا مع التقنوقراطية (technocratie) والدوقولية (gaullisme)؟
- بعد ذلك تستوقفنا فكرة أنّ الشخص الذي كانت تخاطبه الطالبة هو أحد ممثلي تلك السيميولوجيا وبأن الأمر متعلق على وجه التحديد بقضية الإثبات (في دلالة مزدوجة: تحليل وتشويش، تفكيك وبعثرة) – ومن ثم بدت سخرية عابرة على مكلمتي: لقد عملت على استفزازي من خلال الموضوع الذي اقترحته. (أصرف نظري عن تأويل هذا المشهد اعتمادا على التحليل النفسي).

---

* ورد نص المحاضرة في كتاب لرولون بارت، يحمل عنوان "المغامرة السيميولوجية" ولمزيد من الإطلاع نقدم فيما يلي المعلومات المتعلقة بالكتاب:

Roland Barthes, L'aventure sémiologique, Editions du Seuil, Paris, 1985.

– أخيرا ذلكم الحدس المتولد عما نسبته إلي الطالبة من دورٍ منوطٍ برجل سيميائيٍ شبه رسميٍ، يستلزم رعشةً معينةً، ونفاقا معيّنا، ونوعا من الخيانة السيميولوجية التي من شأنها أن تجعل من الشخص الذي خاطبته تلك الطالبة، في الوقت ذاته وبشكل ساخر، شخصا قد انتمى إلى السيميولوجيا وكان خارجها: وهذا ما ولّد نوعا من الطيبة العابرة (قد أكون مخطئا) مما جعل هذا المشهد المليء بالطرافة الفكرية عالقا في ذاكرتي.

قبل إعادة صياغة الأسئلة المحددة لذلك المشهد النفسي، ينبغي علي أن أقول إني لا أمثل السيميولوجيا (و لا البنيوية): ليس بمقدور أي كان أن يمثل فكرةً أو اعتقادا أو طريقة ما، والحجة أقوى لدى من يكتب بحيث لا تكون العملية الانتقائية متمثلة في الكلام ولا في الاكتتاب (écrivance) بل في الكتابة.

بإمكان المجتمع المثقّف أن يصنع بكم ما يشاء، وما يريد، وما ذلك إلا مجرّد لعبة اجتماعية، لكنّني لا أستطيع أن أعيش كصورة، كاكتمال للسيميولوجيا. فأنا على مبعدة من هذا الاكتمال بصفة مزدوجة: بالتواجد والفرار:

– الانخراط إلى جماعة السيميولوجيين ولا أطلب أكثر من مساندتهم في الردّ على مهاجميهم: الروحانيين، والطبيعيين، والمؤرخين، والتلقائيين، والمعارضين للشكلانيين، وقدماء الماركسيين وغيرهم. إن ما ينتابني من شعورٍ تضامنيٍ يبدو أكثر بساطة إلى حد أنني لا أحس بأية رغبة تجزيئية: لا يهمني معارضة أولائك القريبين مني، على غرار ما هو مألوف عند التجزيئيين (دافع نرجسي أحسن فرويد "Freud" تحليله في خضم حديثه عن أسطورة الإخوة الأعداء).

– لكن، ومن جهة أخرى، ليست السيميولوجيا بالنسبة إلي علّة، ولا علما، ولا اختصاصا، ولا مدرسة، ولا حركة أُحدّد شخصيتي وِفْقَها (فمن الكثير جدا أن يتم الاتفاق على إعطائها اسما، وعلى أية حال سيكون ذلك الاسم في اعتقادي قابلا للإلغاء في أية لحظة).

فما السيميولوجيا إذن بالنسبة إلي؟ إنها مغامرة، أي ما يقع لي بغتة (ما يأتيني من الدال"signifiant").

هذه المغامرة شخصية لكنها ليست ذاتية، لأن انتقال الذات هو الموضوع قيد التمثيل لا عبارتها. لعبت هذه المغامرة بالنسبة إلي في ثلاثة أطوارٍ.

1. كان الطور الأوّل طور انبهار، حيث شكلت اللغة أو بصورة أدق شكل الخطاب موضوعا دائما لعملي، وذلك ابتداء من كتابي الأول المعنون "الكتابة في درجة الصفر" (Degré zéro de l'écriture). في عام 1956 قمت بجمع نوع من المادة الأسطورية الخاصة لمجتمع الاستهلاك لأقدّمها لمجلة "نَادو" "Nadeau" ولـ "الآداب الجديدة" "les Lettres nouvelles" تحت عنوان "أساطير" (Mythologies). وفي تلك الفترة بالذات قرأت لأوّل مرة سوسير "Saussure" فانبهرت جراء ما راودني من أمل أساسه منح شهرة مستحقة لأساطير البورجوازيين الصغار التي لم تكن تفرض وجودها إلا في مكان تواجدها، وكذا منحها وسيلة تطور علميٍ تمثلت في السيميولوجيا أو تحليل دقيق لمسار الدلالة، حيث يعود إليها الفضل في تحويل ثقافتها التاريخية المرتبطة بالطبقات إلى طبيعة كونية. نتيجة لذلك بدت لي السيميولوجيا في مستقبلها، وفي برنامجها ووظائفها بمثابة الطريقة الأساسية للنقد الإيديولوجي، لقد عبّرت عن انبهاري وعن أملي في مقدمة "أساطير"، وإن كان النص قديما من وجهة نظر علمية فإنه ممتع لأنه ساهم في تأمين الالتزام الثقافي بمنحه أداة تحليل وإلزامه بدراسة الدلالة معطيا له بعدا سياسيا.

تتطوّرت السيميولوجيا منذ عام 1956، وعرف تاريخها الهيجان، إلا أنني أظل مقتنعا بأن فلات أي نقد إيديولوجي من التكرار المستمر والصرف لوضعه الحتمي يجب أن يكون ولن يكون إلا سيميولوجيًّا: إن تحليل المحتوى الإيديولوجي للسيميولوجيا، كما زعمته الطالبة سابقا، لن يتحقق إلى حد الآن إلا بطرق سيميولوجية.

2. الطور الثاني كان طور العلم أو على الأقل طور العلمية. عملت من سنة 1957 إلى غاية سنة 1963 على إقامة تحليل سيميولوجي لموضوع بالغ الدلالة يتمثل في لباس الموضة (Mode)، وكان الهدف من ذلك العمل جدّ شخصيٍّ أو بالأحرى تعويضيا: تعلق الأمر بإعادة تأسيس دقيق لنحو لغة معروفة لكنها لم تحلل بعد. لم أكن

مكترثا ممّا سيؤول إليه العمل من نتائج مخيبة، فما كان يحقق متعتي هو القيام بالعمل وتجسيده.

سعيت في الفترة نفسها لتصور طريقة معينة لتدريس سِيمْيُولُوجِيٍّ. (مع مبادئ في السيميولوجيا "Eléments de sémiologie").

على مقربة مني أخذ العلم السيميولوجي يتأسس ويتطور وفقا لما كان يختص به كل باحث من انتماء وحركة وحرية (أُفَكِّر بصفة خاصة في أصدقائي وزملائي غريماس "Greimas" وإِيكُو"Eco"). أقيمت روابط مع سابقين كبار من أمثال: جاكبسون (Jakobson) وبَنْفِنِيسْت (Benveniste)، ومع باحثين شُبان من أمثال بْرِيمُوند (Brémond)، وميتز (Metz). كما أنشأت جمعية ومجلة عالمية للسيميولوجيا.

أعتقد أن ما طغى على هذه الفترة من عملي لا يكمن في مشروع تأسيس علم للسيميولوجيا بقدر ما يكمن في تلك المتعة المتأتية من تطبيق طريقة تصنيف: ثمة نوع من الثمالة الإبداعية (L'ivresse créative) في نشاط التصنيف، وهي الثمالة التي تميّز بها المُصَنِّفون الكبار من أمثال صاد (Sade) وفُرْييه (Fourier). لقد بلغت السيميولوجيا في طورها العلمي بالنسبة إلي، تلك الثمالة: لقد حاولت أن أعيد تأسيس واختلاق (مع ما تحمله العبارة من معنى عميق) أنظمة ولُعَبا.لم أُألّف كُتبًا سوى للمتعة: عوضتْ متعة النظام لدي الأنا الأعلى للعلم: كانت تلك إشارة للاستعداد للطور الثالث من تلك المغامرة: كنت في نهاية المطاف غير مكترث بالعلم غير المكترث (على حد تعبير نيتشه "Nietzsche").دخلتُ بمتعة في الدال، في النص.

3. كان الطور الثالث فعلا طور النص.

نُسِجَت خطابات من حولي ناقلة لأحكام مسبقة، مُزْعِجةٍ لبعض المسلمات، مقترحة لتصورات جديدة:

- سمح بروب (Propp)، الذي اكْتُشِف من خلال ليفي ستروس (Levi-Strauss) بنقلةٍ جِديَّةٍ للسيميولوجيا نحو موضوع أدبي هو الحكاية (Le récit).

-   أعطت جوليا كريستيفا (Julia Kristiva) لي شخصيا ومبدئيا –بتغييرها العميق للمحيط السيميولوجي– المفاهيم الجديدة للاستبدالية "Paragrammatisme" والتناصية "Intertextualité".

-   أزاح دِريدَا (Derrida) بصرامة مفهوم العلامة في حدّ ذاته بحديثه عن تراجع المدلولات وعن لامركزية البُنى.

-   قام فُوكو (Foucault) بتقوية إطار العلامة بإعطائها مكانة تاريخية سابقة.

-   قدم لنا لكان "Lacan" نظرية كاملة لانقسام الذات التي لولاها لبقي العلم ضريرا وأبكما من زاوية المكان الذي يتخذه للكلام.

-   وأخيرا شرعت جماعة تيل كيل"Tel Quel" في محاولة فريدة من نوعها، استمر تأثيرها إلى يومنا هذا، بإعادة وضع مجموع تلك التغيرات الحاصلة في الحقل الماركسي المتعلق بالجدلية الماديّة.

اندرجت هذه المرحلة بالنسبة إلي، وبشكل كبير، في كتابيْ "مقدّمة في التحليل البنيوي للنصوص" "Introduction à l'analyse structurel des textes" (1966)، و"س/ز" "S/Z" (1970). وقد أنكر الكتاب الثاني ما جاء تقريبا في الكتاب الأول بالتخلّي عن النموذج البنيوي واللجوء إلى الممارسة التطبيقية للنّص المختلف تماما.

ما معنى النص إذن؟ لن أجيب بتعريف، لأن ذلك سيعيد تكرار المدلول.

يتميز النص بالمفهوم الحديث والحالي الذي نحاول تقديمه لهذه الكلمة عن العمل الأدبي.

إنه ليس منتوجًا جماليا،إنه تطبيق دلالي.

إنه ليس بِنْيَةً (Structure)، إنه بَنْيَنَة (Structuration).

إنه ليس موضوعًا، إنه عمل ولعبة.

إنه ليس جملة من الدوال المغلقة المزوّدة بمعني يفترض إيجاده، إنه حجم من الآثار في حالة حركة.

ليست هيئة النص هي الدلالة إنما هي الدال تبعا للمعنى الذي تقدمه السيميائيات ويعطيه التحليل النفسي للمصطلح.

يتجاوز النص العمل الأدبي القديم، فهناك مثلا وجود لنص الحياة (un texte de la vie)، الذي حاولت من خلاله أن أتوغل بالكتابة إلى ما هو متعلق باليابان.

ما موضع هذه التجارب السيميولوجية الثلاثة –أي الأمل، العلم، والنص– بالنسبة إلي اليوم؟

يُرْوَى عن الملك لويس الثامن عشر (Louis XVIII)، الذي اشْتُهِرَ بذوقه الرفيع في انتقاء جيّد الأطعمة، أنه لم يكن يأكل سوى قطعة اللحم الأخيرة الواقعة أسفل كل القطع التي كان يُحضّرها له طباخه بسبب تسرّب عُصارات باقي القطع إليها. على نفس المنوال أرغب أن تستقبل المرحلة الراهنة من مغامرتي السيميولوجية عُصارة الأوائل. وكما هو الحال في قطع اللّحم المَلَكِيَّة أرغب كذلك أن تُصنع المصفاة من المادة نفسها المراد تصفيّتها، وأن تكون المِصْفَاة (Filtrant) هي نفسها المُصَفّاة (Filtré) كما يكون المدلول دالا. وكنتيجة لذلك آمل أن يُعْثَرَ في عملي الحالي على الدوافع التي ساهمت في تفعيل كل ماضي تلك المُغامرة السيميولوجيّة: الرغبة في انضمامي إلى نُخبة الباحثين الصارمين والوفاء للالتحام الوثيق الحاصل بين السيميولوجي والإيديولوجي.

بيد أن اعترافي اليوم بهذين الموروثين مرهون بإظهار طبيعة التغيير الذي ألحقته بهما.

– أما عن النقطة الأولى، أي عِلْميَّة السيميولوجيا، فلا يمكنني أن أصدق اليوم ولا أتمنّى أن تكون السيميولوجيا علما بسيطا، علما إيجابيا، لسبب مبدئي: إن على السيميولوجيا، عليها وحدها اليوم مقارنة مع كل العلوم الإنسانية، أن تنتقد خطابها الخاص: باعتبارها علما للّغة، للّغات، فإنه ليس بمقدورها قبول لغتها الخاصة كمعطى معلوم، كمعطى شفاف، كأداة.باختصار ليس بمقدورها قبول لغتها الخاصة كلغة واصفة. وبفضل ما اكتسبته من قوة جراء ما وصلها من التحليل النفسي، فإنها تتساءل عن ماهية المكان الذي تتكلّم منه، ودون هذا التساؤل سيكون كل علم وكل نقد إيديولوجي مجافيين للصواب:فيما يتعلق بالسيميولوجيا، وهذا ما أتمناه على كل حال، لا وجود للاإقليمية (Exterritorialité) الموضوع، شأنه في ذلك شأن العَالم إزاء خطابه، بعبارة

أخرى لا يعرف العلم، في نهاية المطاف، أي مكان آمِنٍ، ومن أجل ذلك عليه أن يعرّف كتابةً.

– أما عن النقطة الثانية، أي الالتزام الإيديولوجي للسيميولوجيا، فإني أقول إن الرهان في نظري قد عظم: فما ينبغي على السيميولوجيا التعرض إليه ليس فقط وبصفة فريدة الوعي الحسن للبورجوازية الصغيرة كما كان الأمر في زمن الأساطير (Mythologies)، بل أيضا النظام الرّمزي والدلالي لحضارتنا في شموليته. فمن غير الكافي أن تكون هناك رغبة في تغيير المضامين، يجب على وجه الخصوص استهداف تكسير نظام الدلالة في حدّ ذاته: أي بالخروج من الفضاء الأوروبي المغلق، كما طالبتُ بذلك في نصي حول اليابان.

يجدر إضافة ملاحظة حول هذه المقدمة لاختتام ما قلناه: قيل أنا (Je). إن هذا الضمير الخاص بالمتكلم وَهْمِيٌّ بكل تأكيد (بالمعنى الذي يعطيه التحليل النفسي للكلمة). لو لم يكن كذلك، ولو لم تكن الجدية مهملة، لما كانت ثمة فائدة في الكتابة، ولكان الكلام كافيا. إن الكتابة على وجه التحديد هي ذلك الفضاء الذي يمتزج فيه رجال النحو وأصول الخطاب فيختلفون، ويتيهون إلى درجة لا يتسنّى بعدها الإصلاح: الكتابة هي الحقيقة، لا حقيقة الشخص (المؤلّف)، لكن حقيقة اللغة. وهذا ما يجعل الكتابة تذهب دائما أبعد ممّا يذهب إليه الكلام. إن قبول الكلام عن كتابتنا، كما حدث هنا، هو تأكيد فقط للغير بأننا في حاجة إلى كلامهم.